

التتر بين استسلام العباسيين وجهاد المماليك

The Tatars between the surrender of the Abbasids and the Mamluks' jihad

د. طيبي عبد العالي،

جامعة الجزائر 02 (أبو القاسم سعد الله)

taibi.abdelali@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 25 /06 /2023 ؛ تاريخ القبول: 11 /09 /2023

Abstract: In this research, I deal with the control of the Tatars over Muslim countries and the devastation they left behind after they violated the capital of Al-Rashid, and the horrors that people lived through, which were so bad that some considered the end of Islam in them to be inevitable, due to the corruption they practiced and the systematic destruction of schools and libraries, and Baghdad became after It was destroyed, and it was the present world and the capital of the caliphate, and although Hulagu eliminated civilization in Baghdad, this did not prevent the existence of a bright side represented in the strong response of the Mamluks who raised the banner of jihad, and defended the nation of Islam to return to its former era, a nation that leads and is not led. Through this research, I will address the state of the political vacuum that the caliphate knew, which led to its quenching, and the strong response of the Mamluks who were able to stop this barbaric advance

Keywords: the Abbasids; Mamluks; Tatar; jihad.

الملخص:

أعالج في هذا البحث سيطرة التتر على بلاد المسلمين والخراب الذي خلفوه بعد أن استباحوا عاصمة الرشيد، والأهوال التي عاشها الناس والتي كانت من السوء أن البعض اعتبر نهاية الإسلام فيها أمر لا مفر منه، جراء الإفساد الذي مارسوه والتدمير الممنهج للمدارس والمكتبات، وقد أضحت بغداد بعدما استبيحت خراباً وهي التي كانت حاضرة الدنيا وعاصمة الخلافة، ورغم أن هولاً كوقضى على الحضارة ببغداد، لكن ذلك لم يمنع من وجود جانب مضيء تمثل في الرد القوي للمماليك الذين رفعوا راية الجهاد، وذاذوا عن أمة الإسلام لتعود إلى سابق عهدها أمة تقود ولا تقاد.

ومن خلال هذا البحث سأطرق لحالة الفراغ السياسي الذي عرفته الخلافة والذي أدى إلى سقوطها والرد القوي للمماليك الذين استطاعوا وقف هذا الزحف الهمجى.

الكلمات المفتاحية: العباسيون؛ المماليك؛ التتر؛ الجهاد.

مقدمة:

يعتبر التتر من الشعوب البربرية التي استوطنت البراري والقفار في آسيا الوسطى، وهم يشكلون في الغالب قبائل متناثرة تمتلئ الرعي والصيد ولا دين لهم، إلى أن وحدهم قائلهم جنكيز خان، ثم بدأ في توسيع حدود دولته التي قويت شوكتها بفعل الغارات والتحرشات التي كانوا ينفذونها ضد جيرانهم، ثم انطلقوا كالسيل الجارف تحدهم الرغبة في التوسع فظهرت أسطورتهم المتمثلة في الشعب الذي لا يقهر والجيش الذي لا يهزم، وصار الناس يخشونهم ويسلمون بذلك ولا يستطيعون بل لا يقوون على محاربتهم، لما كانوا يرونه فيهم من قوة وجبروت، وفي هذا الوقت كان المسلمون من السوء والتناحر حيث تفرقت مشاربهم وعمّ الضعف والهوان فيهم وكثرت الفتن والاضطرابات بينهم، ما سهل على عدوهم الانفراد بهم الواحد تلو الآخر حتى كاد أن يقضي عليهم جميعا.

الإشكالية

إن الدارس لتاريخ الدولة العباسية في نهاية عهدها ليجد في نفسه حصرة وحيرة من المآل الذي وصلت إليه بعدما كانت دولة قوية مترامية الأطراف، يهابها كل جيرانها ويحسب لها ألف حساب وقد أضحت في مرمى وأطماع الجميع، ومن هذا المنطلق نطرح الإشكال التالي:

لماذا انتصر المماليك على التتر في الوقت الذي انهزمت وانهارت فيه الخلافة العباسية؟.

والذي تتفرع منه التساؤلات التالية:

ما هي الأسباب التي أدت إلى سقوط العباسيين؟

وما هي العوامل التي ساعدت المماليك على النصر؟

وللإجابة على هذه التساؤلات نستعرض البدايات الأولى لهذا

الغزو ضمن المحاور التالية:

مدخل

عرفت الخلافة العباسية (132-656)هـ: في آخر أيامها الضعف والهوان بفعل نفوذ القوى الخارجية التي اعتمدت عليها في تسير أمورها والتي تدخلت لاحقا في كل صغيرة وكبيرة، وأصبح نفوذها يفوق نفوذ الخليفة نفسه، وبذلك شكلت هذه المجموعات خطرا على وجود الدولة ككل بسبب كثرة أتباعها الذين ينتمون إليها سواء بالمذهب أو العرق أو العصبية أو السلطة، فظهرت الفتن والاضطرابات التي شتت ما بقي من نفوذ بيدهم، ولم تكن الخلافة العباسية وحدها من عانى من هذا المصير بل كانت هناك العديد من الدول المجاورة لها كالدولة الخوارزمية (470-628)هـ التي تنسب إلى أنو شتكين الذي كان مملوكا تركيا لأحد الأمراء السلاجقة بخمرسان وقد قرب منه لما رأى فيه من بأس في حروبه فولاه خوارزم؛ التي استقل بها لاحقا، ثم بدأت ذريته من بعده في التوسع على حساب من كان له الفضل عليهم (العسيري، 1996، ص 248)، فاستولوا على بلاد ما وراء النهر ولاحقا على الدولة السلجوقية وقضوا عليها، ولما كبرت شوكتهم عمدوا إلى الاعتداء على كل من كان

بجوارهم من الغوريين والقراخانيين (الشافعي، 2015، ص 159) الذين كانوا يمثلون الحد الفاصل والسد المنيع بينهم وبين أعدائهم من المغول (فهمي، 1980، ص 96)، وبعد أن حلت الدولة الخوارزمية محل الدولة السلجوقية راح زعماءها يتدخلون في أمور الخلافة العباسية وقد عزموا الاستيلاء عليها إلى أن كانت نهايتهم سنة 628هـ-1230م (العسيري، ص 248)، أما الأيوبيون في الشام والمماليك بمصر فقد عاشا صراع الوجود الذي جعل كل طرف يكيد للآخر الشر من أجل القضاء عليه والاستيلاء على ما بيده من الأرض، وبقي الطرفان ينازعان بعضهما البعض في أحلك الظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية وسنأتي على ذكر ذلك في سياق هذا البحث.

1- كيف استطاع المغول الدخول لبلاد المسلمين

تعتبر حادثة التجار المغول (بكري، 1302، ص 411) الذين دخلوا بلاد خوارزم وتم قتلهم على يد الجنود بعد أن أمر خوارزم شاه بذلك من بين الأسباب الظاهرة لغزو المغول لبلاد المسلمين، حيث اتخذوا من هذه الحادثة ذريعة فأعدوا لها العدة وجّهزوا لها الجيوش وتوجه بعدها جنكيز خان إلى بلاد فارس التي كانت تحت سيطرة الخوارزميين من أجل الانتقام منهم لما فعلوه بتجارهم، وفي طريقهم دمر المغول كل شيء وقع تحت أيديهم.

ولما علم خوارزم شاه ومن معه من القادة بقدومه قرروا أن ينتظروه داخل أسوار المدينة التي يعرفون كل خباياها في حين أن العدو يجهل

ذلك وهو في حالة من الإعياء لا يستطيع معها الدفاع عن نفسه وبذلك يسهل قتاله (ابن الأثير، 2003، ص402)، وما إن وصل جيش جنكيز خان إلى المدينة حتى تفرق الجمع وفرّ كل من كان يدافع عنها باتجاه قبيلته، وعندها أحس خوارزم شاه بالخطأ الذي أوقع نفسه فيه حين أمر بقتل التجار، ففر خارج المدينة حتى وصل إلى مكان يسمى القلعة حيث لحق به جنكيز خان هناك وقتله.

وبعد أن سقطت الدولة الخوارزمية بيد المغول بدأت بعض الفتن في الظهور بشمال البلاد التي كانت تحت سيطرة الإسماعيليين أو ما تعرف بفرقة بالحشاشين التي أسسها الحسن الصباح (القلقشندي، 1922، ص120) ببلاد فارس والذين بدءوا عهدهم، ببث الرعب والخوف والقتل في صفوف كل من لا يتفق معهم أو يعارضهم في الرأي، وقد استغل بعض حكام المسلمين من كل الطوائف هذه الفرقة في تنفيذ مآربهم وسلطوهم على منائئهم، ومن ذلك ما قام به السلاجقة حينما استعانوا بهم لقتل الخليفة العباسي المستنصر سنة (529هـ-1134م) (الصلابي، 2009، ص42).

عمد المغول بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان إلى القضاء على هذه الفرقة التي تفرق أئبائها في البلاد التي كانت لا تزال تحت سيطرة المسلمين، وبذلك يكون المغول قد قضوا على كل منائئهم في الشرق ولم يبق لهم من شيء يحول بينهم وبين عاصمة الخلافة بغداد التي كان

مصيها مصير الدولة الخوارزمية بعد شهر من إخماد فتنة الإسماعيليين (وريلديورانت، دت، ص379).

بدأ غزو بغداد بعد أن أعد المغول لذلك كل إمكاناتهم وجهزوا أنفسهم لحصارها الذي لم يدم سوى شهرا ليستسلم الخليفة العباسي المعتصم، بعد أن قدم لهم من الهدايا ما جعله يظن بعفوهم عنه، ثم ما لبث أن لحق به أولاده وأهل بيته وجمع كبير من حاشيته وبعض القادة والعلماء وتركوا بغداد تواجه مصيرها لوحدها، حيث عمل فيها المغول من السلب والنهب أربعين يوما أحرقت فيها الكتب ودُمرت البيوت وزُهِقت الأرواح ونُكل بالمستضعفين من أهل بغداد التي انتهى حكم العباسيين بها على يد المغول سنة 656هـ-1258م (وريلديورانت، ص380).

3- أسباب هزيمة المسلمين

ما من شك في أن المغول كانوا يمثلون القوة الضاربة في تلك الفترة ولم تكن هناك أي قوة لتردعهم، لكن الضعف الذي أصاب الأمة ممثلة في الخلافة العباسية التي لم تكن تسيطر على الكثير من البلاد المترامية الأطراف إلا بغداد وما جاورها، جعلها تحجم عن اتخاذ أي إجراء تحمي به نفسها، يقول ابن الأثير: "لم تكن أيدي العباسيين حاکمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فإنه خرج عن بني العباس بلاد المغرب ... وأخذ من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر وتداولها الملوك دولا بعد دول، حتى لم يبق للخليفة منهم إلا

بغداد وبعض بلاد العراق، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال" (العودة، 1997، ص 40).

هذا الضعف أطمع الدول التي خرجت من رحم الخلافة الخوارزميين الذين كانوا يتربصون بالخلافة للقضاء عليها بدافع المذهبية التي اعتبرتهم مغتصبين للسلطة من العلويين آل البيت، وعليه يجب إرجاع الحق لأصحابه ، وقد بذلوا في ذلك الكثير فقد اعتمدوا على فتوى لبعض الفقهاء ضعاف الأنفس الذين أقروا لهم بفعلهم هذا، ما ساعدهم في البحث عن أحد الأشراف والدعوة له في المنابر تحضيراً له من أجل الخلافة العلوية بعد إنهاء حكم العباسيين ببغداد (فهمي، ص 95).

ومع سوء الأحوال حول العاصمة بغداد عمد الخليفة العباسي إلى الاستنجد بالمغول لدفع أذى الخوارزميين عنها ووقف زحفهم تجاهها (طقوش، 1997، ص 64)، هذا التناحر الذي أججته نار الفتنة الطائفية ساهم في إضعاف كل الأطراف لحساب العدو الذي زادت قوته وكبر نفوذه واستحوذ على ما بقي بيد المسلمين.

لم تكن الصراعات المذهبية العامل الوحيد الذي ساعد المغول في احتلال بلاد المسلمين بل لعبت الخيانة التي نتجت عن الأحقاد المذهبية بين السنة والشيعية دوراً كبيراً في سقوط بغداد، ففي سنة (655هـ - 1257م) أي سنة واحدة قبل سقوط الخلافة العباسية اشتد العداء بين أتباع المذهبين ودخلا في صدام كان من نتائجه أن الوزير مؤيد الدين ابن

العلقمي (ابن العلقمي، 2000، ص 151) والذي كان من الطائفة الشيعية دخل في صراع مع الوزير مجاهد الدين أيبك الروندار الصغير (الذهبي، 1985، ص 371) الذي كان يمثل الطائفة السنية ليمتد الخلاف إلى أتباع الطائفتين، فجرى على أهل الشيعة من التنكيل والنهب والسلب وهتك الأعراض ما جعلهم يعزفون عن تقديم العون لإخوانهم في حربهم ضد المغول، بل إن ابن العلقمي هذا لحق به من العار ما جعله يكتاب التتار (الذهبي، 1999، ص 34) ويظهر لهم مكانم الضعف في الدولة، الأمر الذي استغله المغول وساعدهم على غزو بغداد (الذهبي، 1985، ص 277) التي لم يكن حكامها يقدرون خطورة الموقف.

ففي الوقت الذي كان فيه المغول يبيدون الدولة الخوارزمية كان الأمراء والحكام العباسيون يعيشون رغد العيش متناسين ومتجاهلين خطرهم الذي لا يمكنهم صده بمفردهم، بل إن الخليفة احتفى بما عنده من الجند في بغداد ولم يعر مدن البلاد الأخرى أي اهتمام أو حماية، لظنه بأنهم لن يتجرؤوا على القدوم إليه وسيكتفون بما في أيديهم حيث يقول: "أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي، إذا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا أيضا يهجمون علي وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي" (ابن العبري، 1994، ص 446)، فكان يسيء التقدير ولا يقدر العواقب حتى سماه أعداؤه بالأبله (الذهبي، 1985، ص 183).

ولأنه ليس بذلك القائد الذي يقدر المصاعب والأهوال التي يعانها المسلمون بفعل ما هم فيه من خطر، فبمجرد أن استدعاه هولاكو لعقد

قران ابنه قام بجمع الهدايا النفيسة وذهب بها إليه ظنا منه أنه سيعفيه من العقاب، لكن تقديره كان خاطئا لأنه لم يكن له من القوة ما يجعله في مأمن لا هو ولا من كان معه من أفراد عائلته وبعض قواده و العلماء (فهمي، ص 112).

ورغم كل الأخطار التي كانت تحدق بالدولة لم تُستنهض الهمم لتجعل من سقوط من سبقها دافعا لوحدها ضد أعدائها بل زادت الخلافات العائلية بين ذرية خوارزم شاه الذي كان له من النساء العديد، فكثر نسله واتخذ كل واحد من عصبية أمه سنداً له على أخيه من أجل الفوز بعرش البلاد بعد أبيه، فهذا جلال الدين منكبرتي (ابن واصل، دت، ص 175) وأخيه غياث الدين شيرشاه (مقديش، 1988، ص 319) الذين وقع بينهما عداا أشعل حربا أتت على الأخضر واليابس وانتهت بانتصار جلال الدين منكبرتي على أخيه، لكنها تركت الجميع وقد أنهكت قواهم وتشتت مشاربهم (فهمي، ص 97/98).

كما أسهم تدخل ترکان خاتور (ابن الجوزي، 1995، ص 14) والدة السلطان محمود خوارزم شاه (غياث الدين) في تسيير شؤون الدولة لصالح فئة موالية لها على حساب الآخرين، وتستبد بالحكم ويطغى نفوذها على الجميع وأصبحت تشكل خطراً على الدولة نفسها، وعندما تدخل السلطان محمد من أجل إرجاع الأمور إلى نصابها ووضع حد لهذا النفوذ الذي استأسدت به والدته، عمدت هذه الأخيرة إلى الإيعاز لأتباعها بالعصيان وزرع الفتنة وتخريب الأملاك، وبذلك دخلت الأم

وابنها في صراع مرير أفقد الدولة قواها وهي التي كانت في أمس الحاجة إلى كل أبنائها (فهمي، ص 93).

4- حال المسلمين في ظل الحكم المغولي

يقول ابن الأثير في وصف حال المسلمين بعد سقوط بغداد بيد المغول معبرا في ذلك عن تلك المأساة: "فلو قال قائل أن العالم منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها" (ابن الأثير، 2003، ص 399)، وذلك من شدة ما عاشه المسلمون من أصناف العذاب على يد المغول، فبعد ما استسلم الخليفة العباسي لهولاكو لم يكن للمسلمين أن يقاوموا من بعده، ذلك أن القادة والفقهاء وأهل الرأي كانوا قد انتهجوا طريق المعتصم نفسه تاركين البلاد للمغول يعيش فيها فسادا وخرابا لأكثر من أربعين يوما دمر فيها كل ما وقعت عليه يده (وإرليديورانت، ص 380).

سأت أحوال أهل بغداد وما حولها من بلاد الإسلام وضعفت عزائمهم وانهارت قواهم واستسلموا لعدوهم الذي نال منهم ومن كبريائهم حتى أصبح النفر منهم لا يقدر على رجل واحد من المغول، إذا دخل دربا فيه مائة رجل من المسلمين، يقتلهم واحدا واحدا حتى يقتلهم جميعا ولم يمد أحد يده إليه بسوء، بل إن الرجل من التتر الذي لم يكن معه سلاحه كان يأمر المسلم يوضع رأسه على الأرض ولا يرح مكانه، حتى يأتي بسيفه ويقتله به (ابن الأثير، ص 412)، ومن شدة هول ما

عاناه المسلمون على يد المغول ظنّ البعض أن الإسلام لن تقوم له قائمة بعد الذي جرى لهم، وأن الأمر يكاد يكون من أشراط الساعة (ابن خلدون، 1981، ص422).

وهذا ما يقع فيه الكثير من المسلمين باعتقادهم أن ما هو مقدر عليهم ليس لهم أن يعترضوا عليه أو يقوموا على تغييره على اعتبار أنه من قضاء الله وقدره.

5- كيف انتصر المسلمون على المغول

رغم اليأس الذي أصاب السواد الأعظم من الأمة بالعراق وإيران وجزء من بلاد الشام كان هناك من يرى عكس ما يراه الآخرون، ولم يزد ذلك الوضع الذي آلت إليه أمة الإسلام إلا إصراراً على دفع الخطر وبعث روح الجهاد في الأمة والتصدي لهذا المد الجارف الذي أصبح يهدد وجودهم بعد سقوط الخلافة ببغداد، وهي الآن تطل عليهم بمصر بعد أن ضمت جزءاً من بلاد الشام.

أحسن المسلمون بالخطر الداهم، فبدأ بعضهم يستنجد ببعض ويتحالف بعضهم مع بعض حتى يكون لهم من القوة والمنعة ما يمكنهم من صدّ هجوم المغول عليهم، فحينما داهم الخطر بلاد الشام استنجد صاحبها بالمماليك الذين لبّوا نداء إخوانهم وسارعوا لنجدهم رغم الخلافات التي كانت قائمة بينهم، والتي كان سببها صاحب الشام الذي استنجد في وقت سابق بالمغول بعد سقوط بغداد من أجل مساعدته على غزو مصر وضمها إليه، لكن وضوح الرؤية لدى المماليك الذين كانوا

يرون في زحف المغول على الشام خطرا عليهم لا يمكنهم معه إلا الخروج لنجدة إخوانهم، متغاضين بذلك عن الخلافات التي كانت قائمة بينهم، والتي يمكن تجاوزها بتقديم هذه المساعدة، فتنازل الملك قطز (الصفدي، د ت، ص 189) عن قيادة الجيش لصاحب الشام الذي كانت ما تزال لديه بعض الوسوس تجاه المماليك قائلا له: ﴿إن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمتك ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره﴾ (السرجاني، 2006، ص 255)، فكان ذلك بمثابة صك الأمان بالنسبة لصاحب الشام.

6- عوامل النصر

6-1 وحدة الصف الإسلامي

عندما اشتد خطر المغول على المسلمين لم يكن هناك من بدّ غير توحيد الصفوف لدفع هذا الخطر الذي استثمر في تشردّهم بعدما انهارت بغداد، فمع أولى الإشارات التي أرسل بها أهل الشام للمماليك من أجل نجدة كانت الاستجابة فورية ودون أي تماطل يثير الريبة أو الشك، لأن الوقت وقت تصالح ونصرة وليس وقت الخوض في الخصومات (الصلابي، د ت، ص 3) حيث قام المماليك بتجهيز الجيوش وإعداد العدة والخروج لقتال التتار (الخلي، د ت، ص 163).

6-2 الأخذ بأسباب الحرب

عندما قام المماليك بنجدة أهل الشام لم يكن ذلك اعتباطاً أو تسرعاً بل كان ذلك بُعد نظر، حيث أخذوا بأسباب الحرب، فحين اجتمع الأمراء وأهل الرأي والقادة والفقهاء لتدارس السبل التي يمكن من خلالها مجابهة العدو كانت جل الآراء متفقة على:

- عدم انتظار العدو داخل الديار لتجنب الأهالي تبعات غزو المغول الذين كانوا يتصفون بسفك الدماء وتخريب الممتلكات، لذلك كان أول ما أئفق عليه هو أن يبادروا العدو خارج مصر وليس داخلها، وبذلك يجنبوا البلاد ومن بها ويلات الحرب (ابن كثير، 1998، ص 401).

- الدفاع عن مصر يتطلب شحذ الهمم ورفع المعنويات، لذلك قام الملك قطز بتحريض الأمراء والقادة والعامة على الجهاد ضد المغول الذين أنهوا الخلافة الإسلامية وسيصلون لا محالة إلى مصر، قائلاً: "إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم" (الصلابي، 2009، ص 108)، وهكذا استطاع أن يجمع الناس على فكرة الجهاد والتصدي للغزاة.

- وضوح الرؤية في الذهاب للحرب ألزم الجميع على اختيار قائد يستطيع أن يلتف حوله الجميع وتكون له الكلمة العليا والنافذة (الزركلي، 2002، ص 265) لأن الملك المنصور ابن المعز ملك مصر كان صغير السن، ولا يستطيع أن يقود جيش المسلمين في حرب كهذه، فكان

الاختيار على الملك قطز الذي أبلى البلاء الحسن واستطاع أن يقود الأمة إلى نصر عظيم (الحنفي، 1975، ص 306).

6-3 الدور الفعال للعلماء:

بدعوته لأهل العلم يكون القائد قطز قد أصبح على حربه ضد المغول صبغة دينية يستطيع بفضلها شحذ الهمم والرفع من المعنويات، لأن البعض كان يرى بعدم القدرة على صدّ العدوان المغولي فكان ممن استشارهم العالم الخليل العز بن عبد السلام (الأسنوي، 1987، ص 84)، الذي أنهى الأمر بكلمة الجهاد مبينا في ذلك أن نصرة المسلم لأخيه واجبة متى ما دخل العدو لديار المسلمين قائلا: "إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس قتاله" (ابن إياس، د ت، ص 302).

وحيثما احتاج القائد قطز للمال من أجل نفقات الجيش كان للعز بن عبد السلام الكلمة الفصل في ذلك، حيث منع جمع المال من عامة الناس إلا بعد أن تفرغ خزانة بيت المال ويدفع الأمراء والأثرياء نصيبهم من المال، وحينها فقط يكون على العامة واجب المشاركة في تموين الحرب، وقد استحسن الناس ذلك وأقبلوا بما لديهم حين علموا أن ذلك مقرر على الجميع دون استثناء، يقول العز بن عبد السلام في أمر جمع المال من اجل قتال المغول: "وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأغنياء الناس، ما يستعان به على تجهيز العسكر، لدفع العدو، لكن بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج والذهب والفضة" (ابن إياس، ص 302).

ولم يقف دور العلماء هنا بل كانوا صارمين بحق الخونة الذين تعاونوا مع المغول على حساب إخوانهم من المسلمين، وبذلك وضعوا حدا لخطر العمالة للعدو التي كان بعض حكام المسلمين يقومون بها، ومن ذلك ما قام به صاحب الموصل الذي ساعد التتار في حصارهم لبغداد بتقديم الإمدادات لهم خوفا على نفسه منهم ومصانعتهم لهم (ابن كثير، ص356)، وهكذا صدرت الفتوى التي تجيز للحاكم قتل العملاء والخونة من المسلمين، وهو الأمر الذي جرى على صاحب الكرك الذي تعاون مع المغول (ابن كثير، 1998، ص448).

يبقى أن نقول بأن المسلمين لم يعتبروا من التاريخ ولم يتعظوا بما كان فيه من ويلات على المسلمين الذين ظنوا بأن الأمة إلى زوال، فالأحداث توالى والتاريخ أثبتتها والأمة ما تزال في غيبوبة لا تكاد تفيق من واحدة حتى تأتي الثانية وهكذا دواليك، والقيادة الحكيمة هي التي تصنع الفارق في النهوض بالأمة، والانتماء هو الذي يوحد الناس، وإحياء روح الدين في النفوس هو الذي يقوي العزائم، والأمة الإسلامية لديها من مقومات الوجود ما تستطيع أن تكون به في مصاف الأمم والحضارات.

7. الخاتمة

إن دراسة التاريخ تعمل على استحضار الماضي بما فيه من إيجابيات وسلبيات ثم استخلاص العبر من ذلك، والأمة الإسلامية جزء من هذا التاريخ الذي مرت فيه بمحن ومصاعب كبيرة كادت في أحيان

كثيرة أن تزيلها من الوجود لولا أن إرادة الله كانت أقوى، وفي هذه الدراسة التي تطرقت فيها لأهم الأحداث التي عاشها المسلمون في القرن السابع الهجري مع غزو المغول للبلاد الإسلامية وإسقاط الخلافة الإسلامية، خرجت بالنتائج التالية:

- ما كان للمسلمين أن تقوم لهم قائمة بعد سقوط الخلافة العباسية إلا لما أخذوا بالأسباب.

- توحدهم ونبذهم للصراعات الداخلية والفتن التي تفرق أكثر ما توحد، جعل في وحدتهم قوة وفي قوتهم بقاء لكيانهم الذي يترصد به الأعداء من كل صوب، وقد رأينا كيف ساءت أحوال المسلمين عندما تنازعوا فيما بينهم وقد تشتت قواهم واستغل أعداءهم هذا الضعف فقضوا عليهم، ثم كيف استعادوا عافيتهم واسترجعوا ما كان بأيديهم عندما توحدوا.

الإيمان بأن العدو مهما كان له من القوة لا بد له من نقاط الضعف لذلك وجب على المسلمين البحث عنها واستغلالها كما فعل الملك قطز حين استبق العدو وقاتله خارج ديار المسلمين الذين كان الغالبية منهم يرون في قتاله عبث وإزهاق لأرواح المسلمين على اعتبار أن العدو أكثر قوة وأشد بأسا.

الأخذ بالأسباب وضع حدا لزحف التتر وجعل الكفة لصالح المسلمين الذين عادت لهم قوتهم ووحدتهم وثقتهم بأنفسهم.

في الأخير يمكن القول بأن هذه الأمة كلما اجتمعت وتوحدت هابها الجميع ولا يمكن لها أن تجتمع إلا بدين وهو الكفيل بأن تبلغ به الأوج، فإذا ابتعدت عنه أكل بعضها بعضا وسهل على عدوها أن يهزمها.

المراجع:

— ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. (2003). الكامل في التاريخ. مراجعة وتصحيح: محمد يوسف الدقاق (ط4). دار الكتب العلمية.

— ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد. (1995). المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. تحقيق: محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا. (ط2). دار الكتب العلمية.

— القلقشندي، أبي العباس أحمد. صبح الأعشى. (1922). دار الكتب المصرية.
— ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم. (دت). مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق ومراجعة: حسن محمد ربيع و سعيد عبد الفتاح عاشور.
— الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. (1985). العبر في خبر من غبر، تحقيق وضبط: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، (ط1). دار الكتب العلمية.

— الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. (1999). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، (ط1). دار الكتاب العربي.

— الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. سير أعلام النبلاء. (1985) تحقيق: بشار عواد معروف و محيي هلال سرحان، مؤسسة الرسالة.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك، (2000). الوافي بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى. (ط1). دار إحياء التراث العربي.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. ديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. (1981). ضبط ومراجعة: خليل شحادة و سهيل زكار. (ط1). دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الأسنوي، عبد الرحيم جمال الدين. (1987). طبقات الشافعية. (ط1). دار الكتب العلمية.
- ابن كثير، عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر. (1998). البداية والنهاية. تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. (ط1). هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.
- الشافعي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العاصمي المكي. (2015). سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. دار الكتب العلمية.
- الحلبي، كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى. (دت). نهر الذهب في تاريخ حلب. المطبعة المارونية.
- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي. (1975). بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق: محمد مصطفى، دار النشر فرانز شتاينر.
- العمراني، محمد بن علي بن محمد. (1999). الأنباء في تاريخ الخلفاء. تحقيق: قاسم السامرائي، (ط1). دار الأفاق العربية.
- مقديش، محمود. (1988). نزعة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار. تحقيق: علي الزواوي و محمد محفوظ، (ط1). دار الغرب الإسلامي.
- العسيري، أحمد معمور. (1996). موجز التاريخ الإسلامي منذ آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر. (ط1). مكتبة الملك فهد الوطنية.

- الديار بكري، حسين ابن محمد ابن الحسن. (1302) هـ. الخميس في أحوال أنفس نفيس. (ط1). مطبعة الفقير عثمان عبد الرازق.
- الزركلي، خير الدين. (2002). الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. (ط15). دار العلم للملايين.
- السرجاني، راغب. (2006). قصة التتار من البداية إلى عين جالوت (ط1). مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.
- العودة، سليمان بن حمد. (1997). كيف دخل التتار بلاد المسلمين الأدوار الخفية في سقوط الخلافة العباسية. (ط2). دار طيبة للنشر والتوزيع.
- فهمي، عبد السلام عبد العزيز. (1980). تاريخ الدولة المغولية في إيران. دار المعارف.
- الصلابي، علي محمد محمد. (2009). السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت. (ط1). مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.
- الصلابي، علي محمد محمد. (2009). المغول التتار بين الانتشار والانكسار. (ط1). الأندلس الجديد.
- ابن العبري، غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون. (1994). تاريخ مختصر الدول، تصحيح وفهرسة: أنطوان صالحاني اليسوعي. (ط2). دار الرائد اللبناني.
- طقوش، محمد سهيل. (1997). تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام 648-923هـ / 1250-1517م، (ط1). دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.
- ويل، وإيريلديورانت. (دت). قصة الحضارة. ترجمة: محمد بدران، دار الجليل للطبع والنشر والتوزيع.

